غزة المفجوعة بأبنائها لم تعرف الاغتيال السياسي في تاريخها

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

التفت الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى مكة وهو يخرج منها إثر مؤامرة القتل التي دبرها كفار قريش، وقال: "والله إنك لأحب بلاد الله إلي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما تركتك." هكذا لم تمنع عقيدة الرسول الأممي المبعوث للناس كافة شعوره وحديثه عن (وطنيته). أي عن كونه مستجيبا للفطرة البسيطة التي لا تقعر ولا تشويه فيها. وهي الفطرة التي تتعلق بموطن الطفولة وبالأقربين من الناس على الرغم من كل شيء، والتي تتولد فيها المشاعر الإنسانية كالدوائر في الماء، من القريب إلى البعيد.. من البيت إلى الحي، ومن الحي إلى القرية أو المدينة، ومن القرية أو المدينة إلى القطر، ومن القطر إلى الوطن الأكبر.. فلا إنسانية لمن لا وطنية له، ولا خير للأبعدين في شخص يكره الأقربين.

وعندما ننظر إلى ما حدث في مدينة غزة في الأسبوع الماضي نشعر بالغضب والإحباط والمس الأليم بالإحساس الفطري الذي يعتمل في قلوبنا تجاه هذه البقاع التي انغرس حبها في طفولتنا وصار جزءا من تكويننا وحياتنا الصميمية داخل نفوسنا. وغزة بالنسبة إلى الغزيين كما هي القدس بالنسبة للمقدسيين ونابلس بالنسبة للنابلسيين هي الرمز وهي التلخيص. والأعداء من ناحيتهم ومبغضو المدينة وتاريخها من ناحية أخرى، واللامبالون بها وغير العارفين بقدرها من ناحية ثالثة، يدوسون على كل ما هو حبيب إلى النفس في المكان وسكان المكان دون أن يطرف لهم جفن. وبعضهم يعامل المدينة كأنها سبية سقطت تحت قدميه.

لم تعرف هذه الجميلة المتربعة على الساحل الجنوبي الفلسطيني في تاريخها السياسي الأهلي وقائع القتل والاغتيال بين بني الوطن الواحد. إنها تتذكر القتل الذي أوقعه البريطانيون بالحامية الغزية في الحرب العالمية الأولى، وتتذكر القتل الذي أوقعه الإسرائيليون بأهل المدينة في حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ وعلى مدى الاحتلال الذي لا زالت المستعمرات تؤدي دوره في القتل كاملا غير منقوص. وتعرف أيضا القتل الجنائي الذي يوقعه اللصوص وقطاع الطرق بالضحايا، أما المنافسات المعهودة واختلاف الآراء والمواقف في ميادين السياسة والرأي فلم يلجأ أهالي هذه المدينة القديمة العريقة فيها للقتل والاغتيال أبدا، على الرغم من ولوغهم في المكائد والمماحكات التي لا يختلفون فيها عن غيرهم من الناس.

قداسة رسالة السلاح

ولذلك فإن أعمال القتل التي كانت المدينة مسرحا لها يوم الاثنين الماضي بدءا بمصرع العقيد راجح أبو لحية في شارع الجلاء، ثم مصرع كل من ابن المدينة الشاب محمود فاروق البورنو والشاب محمد حجازي أبو القمصان في ساحة فلسطين وسط المدينة، ثم أعمال العنف وإطلاق النار الأخرى المتفرقة، التي بادر العقلاء من أهل المدينة إلى تدارك آثارها، قد روعت المدينة التي لم تكن إلا رابطة الجأش في المعتاد. كذلك حدثني الناس أنها أثارت الكوامن القديمة التي تخلفت عن مصرع هشام مكي قبل سنوات قليلة ومصرع كل من أسعد الصفطاوي ومحمد أبو شعبان وماهر كحيل في الفترة التي سبقت تسلم السلطة الوطنية صلاحياتها من قوات الاحتلال.

تلك شخصيات مختلفة. لكل منها لونه وموقعه وقيمته وتاريخه المغاير للآخرين. ولكل منها ملابسات اغتيال مختلفة. إلا أن ما نريد الإشارة إليه والتحذير منه هو استباحة الأيدي الجانية الشاذة، أيا كانت صفتها، اتخاذ هذه القلعة الوطنية الشامخة مسرحا لتنفيذ جرائم اغتيال سياسية. وليس من مقاصدنا فتح ملفات تلك الاغتيالات التي آثر البعض إسدال الستار عليها إلا إذا تولت ذلك جهة قضائية في ظروف ملائمة.ولكن من المرغوب فيه جدا أن نرفع إلى السيد الرئيس ياسر عرفات، وهو الرئيس الأعلى للسلطات الثلاث وولي الدم لجميع الرعايا، نداءنا بإيلاء هذه المدينة نظرة خاصة في اللحظة الحاضرة، على الرغم من ازدحام اللحظة بالشواغل الخطيرة.

وكما أن الوطن يأمل من القادة أن يربوا أبناءهم المجاهدين والمناضلين بوصفهم أمناء على قداسة رسالة

السلاح ومقاتلين في سبيل الله والوطن لا في سبيل ثاراتهم الشخصية، كذلك هو بحاجة إلى إعادة الاعتبار للقانون والقضاء وإلى إصدار القرارات الإدارية ولوائح الإجراءات التفصيلية التي تعزز سلطة القضاء وتؤكد تربية حاملي السلاح بوصفهم ضبطية قضائية، لا حزبا سياسيا ولا عشيرة تابعة لشيخ يجمع الإتاوات ويأكل معظمها ويلقي بفتاتها إلى حرافيشه.. فذلك - وليس غير ذلك - هو ما يمكن أن يحول دون تكرار ما وقع ودون الاقتتال الداخلي.

هناك مقاولون كبار في مجال حرب الإخوة ينتظرون مواسمها، وهم ذوو مصالح تقدر بالملايين. وهناك أغبياء عصبيون أو قصار نظر وانتهازيون ضيقو أفق. وهناك مجرمون أصحاب أمزجة دموية. وعندما يستمع المرء إلى هذه الأصناف من التماسيح المنتشرة هنا وهناك في أكثر من فصيل واحد، وهي تتناول بالقذف والاتهام وبالسباب والشتيمة والعداوة والبغضاء والحدة والعنف رفاق الصف الوطني الواحد دون أناة ولا اقتصاد ولا محافظة على خط الرجعة، يقول المرء في نفسه: لقد عقد هؤلاء حلفا خفيا مع العدو ! أو لعل الأبرياء منهم نسوا لشدة تعصبهم التنظيمي وجود عدو مشترك !

وقد سبق أن قلنا في أكثر من أسبوعيات واحدة إن الشعب العربي الفلسطيني شعب صغير، وإن الفصائل الفلسطينية تعرف حقيقة كونها تغترف قواها البشرية من النبع المبارك الذي هو الأسرة الفلسطينية، ولهذا صار الإخوة من أب وأم واحدة موزعين على الفصائل كبيرها وصغيرها ويسارها ويمينها داخل الوطن وخارج الوطن. وكل مشروع اقتتال أهلي هو عدوان حتمي على الآباء والأمهات الذين يؤدي خلاف القادة والزعماء لفجيعتهم بأبنائهم القتلى في منازعات الإخوة، ولا تنفع أولئك الآباء والأمهات تعزية الزعماء لهم بإطلاق وصف الشهداء عليهم أو إجراء راتب شهري لذويهم في حين يغص الآباء والأمهات بشعورهم أن الشهيد هو من يقتله العدو، لا من يموت على يد أخيه.

ربع قرن من حروب أهلية

وتجربة الثورة الفلسطينية مع الجريمة السياسية والاقتتال الفلسطيني - الفلسطيني تجربة مريرة. وهي تدلنا على أن أخطر ما يمكن أن يتعرض له المجتمع هو الاقتتال الداخلي فهو الأقدر على إيقاع الخسائر الجسيمة التي لا يوقعها اقتتال آخر وفي المواضع التي لا يصلها. والأمثلة على ذلك كثيرة. ولا مجال للكلام عنها.

أما كفانا أن تاريخ المنطقة العربية خلال ربع القرن الأخير هو تاريخ اقتتال بين كل دولة عربية وشقيقتها الجارة ؟ وبين كل طائفة داخل الأقطار العربية وبقية الطوائف ؟ لقد لعبت القوى الأجنبية بالمنطقة في وقت من أحلك الأوقات، وتحالفت مع مقاولي الحروب الداخلية ومع الجهل ومع الأهواء، وكنا نحن الفلسطينيين أشد المتضررين من ذلك، وكانت قضيتنا واحدة من الأهداف المستهدفة في المقام الأول، لأن قضيتنا هي الهم المركزي للعرب والمسلمين جميعا. هل يأتي الفلسطينيون بدورهم ليقوموا بعملية انتحار جماعي ؟ ما الذي أصاب الناس ؟!

إننا نرفع الصوت وننبه بقوة ونحذر بقوة من المصائب الكبرى قبل أن تصيبنا، لأنه لا جدوى من التنبيه بعد وقوع الكوارث. ولن نرى حرجا في تسمية الأشياء بأسمائها ومعالجة القضايا على حقيقتها.

أعتقد أن الشارع الفلسطيني يؤمن إيمانا متزايدا من وحي التجربة المعاشة بالمسائل التالية:

أولا - هناك معيار وضابط مؤكد لا يختلف عليه اثنان، هو أنه لا حق لأي فصيل منفرد، في إعلان الحرب نيابة عن الكيان الفلسطيني كله. فالفصيل جزء من المجموع وليس المجموع بكامله. ولا يحق لأحد تحميل المجموع عواقب عمل لا يرضونه طوعا واختيارا. ولكن الوسيلة الوحيدة الجائزة لإلزام أي طرف من أطراف الصف الفلسطيني بأي معيار وقانون هي وسيلة اجتماع الجميع عليه لإقناعه والضغط عليه لا للدخول في معركة ضده أو لزجه في غيابة الجب أو في غياهب السجن. والمرء لا يتخيل طرفا يبلغ به العناد أن يقف في مواجهة الساحة بأسرها. ونضيف بالمناسبة إن الناس ترى أن الإسرائيليين هم الذين أعلنوا الحرب أساسا منذ داهم آريئيل شارون المسجد الأقصى. ونضيف كذلك أن حماس وغير حماس يقولون إنهم نزلوا عند إرادة إخوانهم وأوقفوا العمليات المقصودة، وذلك طيلة فترات معينة، ولم يقطعها إلا شارون، باغتيالاته واجتياحاته، وفظائعه التي يقصد منها أن تستفز ردود الفعل استفزازا.

ثانيا - الناس يتابعون التصريحات الأمريكية والتحركات السياسية والحربية الأمريكية، ويلاحظون ذلك

الإلحاح والتمحك ضد العراق بل ومؤخرا ضد مصر والسعودية المعتدلتان (حسب الأوصاف المتداولة في الإعلام الغربي)، وإجمالا ضد الإسلام دينا وعقيدة وهوية وبلدانا وأفرادا. وقد بدأ هذا الاقتناع يتبلور ويكبر، وبات الكثيرون مقتنعين أن شارون يواصل ضرباته لأنه يعمل وفقا لمخطط طويل معين ومترابط يأمل في نجاحه. وهو مخطط شامل ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين. ومعظم الفلسطينيين يرون أن امتناع خلايا العمل العسكري التابعة للفصائل المختلفة عن شن العمليات داخل أراضي ٤٨، لا يقدم ولا يؤخر بالنظر إلى خطط شارون الموضوعة تحت التنفيذ. وفي حين يأمل البعض أن الولايات المتحدة وأوروبا يمكن أن يضغطوا باتجاه وقف المخطط الشاروني يرى البعض الآخر أن الولايات المتحدة لن تقوم بأي عمل لا يطابق الهوى الإسرائيلي. ومؤخرا بات من المفهوم أن أعضاء الإدارة الأمريكية الراهنة مثل رامسفيلد وتشيني هم من غلاة الصهيونية الأصولية المسيحية الأشد عداء من إسرائيل ذاتها وأنه لا يمكن لمنطقتنا ـ في عهدهم على الأقل ـ أن تنتظر إلا البلاء.

<u>فلسطين مثل غيرها !</u>

ثالثا ـ الفصائل الإسلامية في فلسطين تمثل جزءا من ظاهرة لا تتوقف عند حدود فلسطين وإنما هي كما يعرف جميع المراقبين عامة في المنطقة. وعدا عن ذلك هناك في جميع البلاد شرقا وغربا أحزاب دينية. وفي أوروبا مثلا أحزاب سياسية تطلق بعضها على نفسها أسماء تدل على شخصيتها المسيحية. فالأحزاب أو الفصائل الإسلامية بدورها لا تختلف في ذلك عن غيرها.

وظاهرة الرجوع إلى الدين مألوفة في أعقاب التجارب القاسية والكوارث والامتحانات في حياة الأفراد والأمم على حد سواء. فليفهم الغرب ولو على هذا النحو وجود الفصائل الفلسطينية جنبا إلى جنب مع وجود غيرها.

رابعا ـ الرأي العام الفلسطيني يريد السلام والتهدئة ولكنه يريد ضمانة دولية بتنفيذ الاتفاقات التي جرى عقدها والتوقيع عليها مع الإسرائيليين. ومما يثير أعلى درجات الريبة في النفوس رفض مطالب الجانب الفلسطيني والعربي المتكررة في مجلس الأمن إرسال قوات دولية للفصل بين الجانبين. إن الفيتو الأمريكي الموضوع تحت الطلب الإسرائيلي دائما، وفي هذا الشأن بصورة ملفتة للنظر، يعني تماما أن شارون حصل على ضمانة أمريكية أن مخططه لن يلقى اعتراضا حتى تمام تنفيذ أغراضه. أما الأمارات البادية حاليا، التي تطلب منه تخفيف لهجته أو إطلاق وعود على لسان بن إليعازر باتخاذ إجراءات تقلل من عناء الفلسطينيين فليست أكثر من حيل سينمائية مطلوبة لإخراج فيلم المعركة ضد العراق.

خامسا ـ مهما كان الحال ومهما بلغت العلاقة بين أطراف الصف الفلسطيني فالاقتتال ممنوع. وعلى الأغلبية الصامتة غير المسلحة أن تحول دون ذلك. وعلى الشرفاء والغيورين والمحبين لشعبهم أن يبذلوا كل جهد في سبيل منع الاقتتال وفي سبيل ضمان الأمن للمواطنين. إن وحدانية السلطة حق وإقرار الأمن حق. ولكن ذلك لا يقتضي الاقتتال حكما. ووجود كل طرف في الساحة ومساهمته في النضال الوطني حق. ويرتبط بذلك حتما إصلاح السلطة كي تكون وحدانيتها مقتعة لا مفروضة بالقسر والإكراه. فالقسر والإكراه لا يفرض الحالة إلا ما دام التهديد بالسلاح قائما، أما الإقناع والاقتناع فهو ضمانة الاستمرار والتطور السليم.